مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

المضامين الاتصالية والإخبارية في قصة مريم

الدكتور محمد بصل*
نور حاتم**

(تاريخ الإيداع 5 / 5 / 2014. قبل للنشر في 26 / 5 / 2014)

□ ملخّص □

شكّل النصّ القرآني من حيث هو رسالة سماوية، بناء تبليغياً وفق قواعد اتّصاليّة ،فخاطب وحاور الآخر، ونال القرآن الكريم قسطاً كبيراً من الدراسة والتحليل. فلم تبق منه ظاهرة إلا وتعرّض إليها العلماء والباحثون . قدامى ومعاصرون . في هذا الكتاب العزيز.

ولكن كلما درسنا النص القرآني من جانب مختلف، كشفنا وجوها عدة جديدة. .فكانت ظاهرة الاتصال فيه، مفتوحة على شؤون الناس، وما يخصّ تجددها وتطورها الدائم، متخذاً الإقناع سبيلا يسلكها في استقطاب الناس نحو الإسلام.

فالقرآن الكريم جاء ليسطر علاقته مع خالقه ونفسه وغيره من البشر. فهو رسالة موجهة إلى البشرية جمعاء، يُعتمد فيها على مخاطبة العقل في عملية الإقناع، مقدماً بذلك لغة حية تصلح لكل العصور لها دور فعال في إقناع الآخرين، هي في أساسها موجهة من أجل التأثير على آراء المخاطب وسلوكياته واستمالة العقل، وفق استراتيجية لغوية خاصة، تقوم على أساس توظيف اللغة داخل بنية متجددة، ترتبط بالمتكلم والمتلقي داخل سياق اجتماعي ونفسي واتصالي محدد، غايتها تتمثل في التأثير بالمتلقي. وفي عملنا هذا نتعرض إلى سورة مريم، التي تشكل قدراً كبيراً من الأهمية في الدراسة اللغوية، وفيها مخاطبة الناس ووعظ ومجادلة ومناظرة، إضافة إلى طريقة خاصة في إقامة الحجة والبرهان والاستدلال.

إن النصّ القرآني، لا يقصّ قصة إلا ليواجه بها واقعاً، ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا، وهي الغاية الأسمى في الاتصال، إذ يحاول المتكلم التأثير في الآخر وجعله يقتنع بالطرح الجديد، فيتوصل إلى التأثير على الطرف الآخر الجديد، وبالتالي يلزمه الحجة معتمداً على قصص الأنبياء والمرسلين الذين أرسلوا إلى الأمم السابقة. ومن هنا برزت أهمية البحث بوصفه موضوعا من الموضوعات العلمية، المتصلة بأشرف كتاب في هذا الوجود، ألا وهو القرآن الكريم. ذلك أن الاتصال ارتقى لأن يكون علماً من أهم العلوم اللسانية برمتها، بالإضافة إلى تقصي الظواهر في القرآن الكريم ومحاولة الكشف عن أغوارها عن طريق إثباتات مؤسسة على نظريات علمية حديثة، تبحث في علم أصيل له أسس وضوابط مختلفة وكل ذلك من خلال القرآن الكريم. وقد اخترت المضامين الاتصالية والإخبارية في سورة مريم موضوعا للدراسة بسبب جدته في الدراسات العربية المعاصرة، في جانبها النظري ومحدودية الدراسات التطبيقية في مجال التحليل القرآني.

الكلمات المفتاحية: التداولية، الاتصال، الحجاج،الحجاجيات اللسانية،المضامين الإخبارية

* **أستاذ – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين –اللاذقية – سورية**
** **طالبة دراسات عليا – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين –اللاذقية – سورية**

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (3)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (3) 2014

Informative & Communicative Tenors in the story of Meriam

Dr. Mohammad Basal[*]
Nour hatem[**]

(Received 5 / 5 / 2014. Accepted 26 / 5 / 2014)

□ ABSTRACT □

The Quranic text ,through being a divine message , formed a messaging structure according to communication rules so it talked and contacted the other and got a great deal of study and analysis . So scientists and researchers , veterans and contemporary , studied all the phenomena in this valuable book.

The more we study the Quranic text from different side , the more uncovered faces we find. For example , the phenomenon of communication was opened to the situations of people and everything related to their permanent renewal and development , taking persuasion in a way to attract people towards Islam.

The Quran came to underscore his relationship with the Creator and itself and other people . It's a message addressed to all humanity , depends in which to address the mind in the process of persuasion , offering a living language suitable for all ages , has an effective role in persuading others , essentially forwarded to influence the views of the addressee , swaying the mind according to a specific linguistic strategy based on the employment of language within renewed structure linked ideologue and the receiver within a social and psychological context with the purpose of influencing the recipient.

The Quranic Text tells stories for facing reality and does not decide the truth , but to change void, which is the supreme goal of communication where speaker tries to effect the other and makes him convinced with the new offer and gets the answer to influence the other new party , therefore forces the argument relying on stories of the prophets and messengers who were sent to previous nations. Hence the importance of research rises as one of the scientific subjects that connects to the clearest book in the world, which is Quran. The connection is elevated to be informed of the most important linguistic science as a whole . As well as investigating the phenomena in the Quran and trying to detect underneath by evidence based on modern scientific theories , you are searching through a science of foundations and different control rules all through Quran.I have chosen Informative & Communicative Tenors in the story of Meriam as a subject of study because it's a new research in Contemporary Arab Studies in theoretical part and limitations of empirical studies in the field of Quran analysis .

Keywords: Pragmatics**,** Argumentation, Communication, Informative Tenors

[*]**Professor, Arabic Department, Factuly of Arts Humanities ,Tishreen university, Lattakia, Syria**
[**]**Postgraduate student, Arabic Department, Factuly of Arts Humanities, Tishreen University Lattakia, Syria**

مقدمة:

القرآن الكريم، كلام الله، وأمانة جبريل، ورسالة محمد (ص)، وحين نتأمل القرآن الكريم وآياته الكريمة، نجد إشارات لمعظم العلوم . إنْ لم يكن جميعها فهو منهج حياة، ومشروع حضارة، وهدىً للمؤمنين، وقصّة خلق، هو رسالة السّماء للأرض، والإسلام رسالة للنّاس أجمعين، والنبيّ محمّد الرّحمة المهداة للنّاس ومنه يأتي الارتقاء بالإنسان من الانطواء على نفسه إلى الانفتاح على العالم بأسره. وانتقاله من الحالة الفردية إلى الحالة الجماعيّة، ومن الاتّصال المحدّد إلى الاتّصال الموضوعي الشّامل، ولأنّ الاتّصال تقنية لغوية إجرائية في فهم التفاعلات البشرية، وتفسير النصوص، فيمكننا الجزم بالقول: إنَّ الاتّصال أصبح علماً قائماً بحدّ ذاته له تقنياته وأساليبه، وله أسسٌ وضوابط مختلفة في القرآن الكريم.

وقد جسّد النبيّ (ص) مفهوم الاتّصال بأبلغ معانيه وأسماها. وحمل على عاتقه مهمّة تبليغ الرّسالة الإسلاميّة إلى الناس كافة، وامتدت هذه الرسالة إلى الأمم كلها، ولم تقتصر على العرب، بل شملت ملوك فارس والرّوم وغيرهم من بقية الشعوب. قال الله تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». ولذلك نرى سيرته غنيّة بالاتّصال مع النّاس، ونرى ذلك في حكمته وحديثه ومجادلته، وإقامة الحجّة وطريقة معاملته أصحابَه

أهمية البحث وأهدافه :

يهدف هذا البحث إلى:

-الربط بين عدة مجالات متعلقة ببعضها بعضاً وتتلاقى في أكثر من موقع.

-بيان أهمية الاتصال بوصفه علماً لسانياً حديثاً في القرآن الكريم، وتصوير النفس وخلجاتها بكل حركاتها وإشاراتها.

- إيضاح منهجية القرآن الكريم في ضبط أنواع الاتصال كافة.

وتتجلى أهميته فيما يلي:

-التأكيد على آليات العملية الاتصالية في حياة الرسل وأثرها في دعوتهم.

- الكشف عن نماذج وآليات الحجاج الخاصة بالطبيعة الإلهية. فهو خطاب السماء إلى الأرض بلغة عربية معجزة.

- فتح آفاق أمام الباحثين في القرآن الكريم لتأصيل هذا العلم.

طرائق البحث ومواده :

1-القرآن الكريم –(سورة مريم) :

وفي عملنا هذا نتعرض إلى قصة مريم عليها السلام في سورة مريم، التي تشكل قدراً كبيراً من الأهمية في الدراسة اللغوية، وفيها مخاطبة الناس ووعظ ومجادلة ومناظرة، إضافة إلى طريقة خاصة في إقامة الحجة والبرهان والاستدلال.

2 – التداولية :

تعدّ التّداولية اللسانية (pragmatigue linguistigue) اكتشافاً جديداً في اللسانيات العامة عرف في سبعينيات القرن المنصرم، وتطور تطوراً كبير فيما بعد. مما جعل اللسانيين الجدد مترددين في تحديد رؤية موحدة لهذا الوافد

الجديد. فقد اقترح بعضهم عدّة تحديدات أو بالأحرى توجهات تتماشى ومكونات التداولية. بينما رأى آخرون أنَّ تحديد هذا المفهوم هو تضييق يحول دون التعمق و التحرّي السديد في اللّغة الطبيعية. وبذلك تكون قد تعددت الرؤى من شارح للنظريات التداولية لداعٍ إلى استثمارها في دراسة اللّغة وما ينجز بوساطتها من خطابات يومية إلى آخر يريد تأصيل الثقافة التراثية في التداولية بوصفها تربط بين علوم متشابكة ومتكاملة بخاصة في مجالات الفلسفة وعلم النّفس وعلوم الاتّصال [1]

إن الحديث عن التّداولية يقتضي الإشارة أيضاً إلى العلاقة القائمة بينها وبين الحقول المعرفية المختلفة، فكّل مصدر من مصادر التّداولية علم انبثق منه. وكلّ مفهوم من مفاهيمها الكبرى حقل معرفيّ تفرع عنه.

3- الاتصال :

3-1 الاتصال لغة :

وَصلَ: وَصَلت الشيء وَصْلاً وصِلةً، والوصل ضدّ الهجران، ابن سيّده، الوّصْل خلاف الفصل. وَصَلَ الشيء بالشيء يَصِلُهُ وصلاً وصِلةً وصُلةً، الأخيرة عن ابن جني وفي التنزيل العزيز: [وقد وصلنا لهم القول] أي وصلنا ذكرُ الأنبياء وأقاصيص من مضى بعضها ببعض لعلّهم يعتبرون.

واتّصل الشيء بالشيء، لم ينقطع؛ وقوله، أنشده ابن جني: قام بها ينشد كل منشد

وأوصله غيرُه ووَصَلَ بمعنى اتّصل أي دعا دعوى الجاهلية، وهو أن يقول يالَ فلان! وفي التنزيل العزيز ((إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ..)) أي يتصلون؛المعنى اقتلوهم ولا تتخذوا منهم أولياء إلاّ من اتّصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق واعتزوا إليهم. واتّصل الرجل: انتسب. [2]

3-3-2 الاتصال اصطلاحا:

إنّ مصطلح الاتّصال communication، وبالرغم من تداوله الواسع بين الأفراد والجماعات، إلاّ أنّ مفاهيمه قد تنوعت. وقد ذُكر أنه من الكلمة اللاتينيّة communis التي تعني في أساسها المشاركة، أي الاشتراك سواء في المعلومات وتبادلها أو في المشاعر والاتجاهات ووجهات النظر. ورد في قاموس اكسفورد (Oxford) أن الاتّصال يعني نقل أو توصيل أو تبادل المعلومات أو الأفكار بالكلام أو بالكتابة أو بالإشارات. [3]

فتبادل المعلومات يقتضي توفر مرسلٍ ومتلقٍ، أو أكثر في حالات متعددة. فحين نتكلّم نجد من يسمعنا، وعندما نكتب، نتوقع من يقرأ لنا، وحين نستخدم الإيماءات والابتسامات، ننتظر من يستقبلها.

وقد ذكر« كارل هوفلاند » أنّ الاتّصال: «هو العملية التي يقوم خلالها القائم بالاتصال، بمنبهات (رموز لغوية)، لكي يعدل سلوك الأفراد مستقبلي الرسالة. أما معجم اللسانيات الذي أشرف عليه «جون ديبو»، «j.dubois» فقد قدم تعريفين: أولهما: إن التواصل تبادل كلامي بين المتكلّم الذي ينتج ملفوظاً، أو قولاً موجهاً نحو متكلّم آخر يرغب في السماع، أو إجابة واضحة أو ضمنية «implicite ou Explicite» تبعاً لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلّم.

فالاتصال ضمن هذا المفهوم، نشاط يقوم على التبادل الكلامي بين متكلّم يوجه كلامه نحو متلقٍ لجذب انتباهه إلى هدف ما. وثانيهما التواصل حدث نبأ، ينقل من نقطة إلى أخرى، نقل هذا النبأ يتم بمرسلة استقبلت عدداً من الرسائل.[4]

ويعدّ المدلول اللغوي، قريباً من المفهوم الاصطلاحي للمعنى الكلاسيكي. هذا المعنى الذي يجعل المستقبل مجرداً من الإرادة عند عملية التلقي. وهناك بعض التعاريف جعلت الاتّصال مجرد استجابة المتلقي للمرسل، مثلما هو

الحال في تعريف ستيفنكس «Stevens» الذي أكدَّ على أنَّ الاتّصال "مجرد استجابة الكائن الحي المميّز لأي مرسل"[5]

فمعظم التعاريف الكلاسيكية، أكدّت على دور المرسل في توجيه المضامين نحو مُستقبل، بفرض تغيير مواقفه.

بعكس التعريفات الحديثة، التي تؤكد على أهمية التفاعل والتبادل بين أطراف الاتّصال، وترى أن الاتصال، عملية تفاعل اجتماعي يستخدمها النّاس لبناء معانٍ تشكل في عقولهم صوراً ذهنية عن العالم. وهم يتبادلون هذه الصور الذهنية عن طريق الرموز. ويُعدُّ هؤلاء الاتّصال مشاركة في فكرة أو اتجاه أو موقف، من دون أن يعني ذلك الاتفاق في الفكرة أو الاتجاه أو الموقف، وهذا ما دعا إليه بوجردوس خلال تعريفه الاتصال بقوله: (إنّه التفاعل في ضوء منبهات أو إشارات أو نظرات عن طريق استجابة الأشخاص إليها، ويستخدم الاتصال هذه المنبهات رموزاً لما تحمل من معنى فإذا اكتسب شخصان الرموز نفسها بالمعاني نفسها، فإنّما يتصل كل منهما بالآخر، ومن ثمّ ينشئون الاتّصال).[6]

3-4 – الإخبار :

3-4-1- الخبر لغة :

جاء في لسان العرب لابن منظور: "الخبر واحد الأخبار وأخبره أنبأه، واستخبره سأله عن الخبر، وطلب أن يخبره، وخبرت بالأمر أي علمته، والخبر هو ما أتاك من نبأ"[7]

والخبر عرفاً ولغة " هو ما ينقل عن الغير وهو مرادف النبأ، وإنَّ النبأ خبرٌ مقيدٌ بكونه عن أمرٍ عظيم".[8]

3-4-2- الخبر اصطلاحا :

تعددت تعريفات الخبر، لأنها اختلفت من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى آخر، ومن علم إلى آخر وإنَّ محاولة جمع وتصنيف كل التعريفات، مهمة لا تقلّ صعوبة عن تقديم تعريف للخبر.

ونقل ابن فارس عند أهل اللغة أنهم "لا يقولون في الخبر أكثر من أنَّه إعلامٌ"[9]

فالجاحظ قسّم الخبر إلى أقسام ثلاثة، فهناك خبر صادق وهناك خبر كاذب، وثالث لا يوصف بالصدق ولا الكذب، فالصّادق ما طابقَ الواقع والاعتقاد معاً، والكاذب ما خالف الواقع والاعتقاد معاً، أما ما طابقَ الواقع وخالف الاعتقاد (والعكس)، يقول الجاحظ: هذا لا نسميه صدقاً ولا كذباً"[10]

3-5- الحجاجيات اللسانية :

الحجاج مفهوم متشعب وملتبس على الدارسين، لتشعب مجالاته، وتعدد استعمالاته وتباين مرجعياته: الخطابة . الخطاب . القضاء . الفلسفة. يستمد معناه وحدوده وظائفه، من مرجعية خطابيّة محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلي، الذي يندمج في استراتيجياته، ولا غرابة والحالة هذه، أن هناك حجاجاً خطابياً لسانياً، وحجاجاً خطابياً بلاغياً، وآخر قضائياً أو سياسياً أو فلسفياً».[11]

تجمع المعاجم اللغوية الأساسيّة في تعريفها للحجاج، على ما جاء في «لسان العرب» لابن منظور:

«يقال حاججته أحاجه حجاجاً ومحاجة. حتى حجته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والحجة: البرهان. وقيل: الحجة ما دفع به الخصّم، وقال الأزهري: (الحجة الوجه الذي يكون به المظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جدل، وحجة يحجه حجا: غلبه على حجته)، وفي الحديث: فحجَّ آدم موسى أي غلبه بالحجة.[12]

ويقابل هذه اللفظة في الفرنسيّة Argumentation التي تدلّ على معانٍ مقاربة أبرزها قاموس روبير "petit Rober"

. القيام باستعمال الحجاج.

. مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.[13]

أما في الإنكليزية فيشير لفظ Argue إلى وجود اختلاف بين طرفين، ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره؛ بتقديم الأسباب أو العلل Reasons التي تكون حجة Argument مع، أو ضد فكرة أو رأي أو سلوك ما. [14]ومن خلال هذه التحديدات المعجمية، نجد لفظ الحجاج أو المحاجة متضمناً دلالةً ومعنى مستمدين من طبيعة سياقه، أو شرطه التخاطبي المتمثل في: «التخاصم والتنازع، والجدل، والغلبة» أي بمعناه الفكري والتواصلي.

وفي المعجم الفلسفي، نجد أنَّ الحجة (argument) تعني ما يراد به إثبات أمر أو نقضه، ومنها جاءت كلمة محاججة (argumentation» ويراد طريقة الحجج والاستفادة منها)[15]

ويذهب طه عبد الرحمن إلى أن الحجاج لا يدور على الألسن بالدّرجة نفسها، التي يدور عليها لفظ التواصل ونجده يقول: «إنّه فعالية تداولية، لأنَّ طابعه الفكري مقامي واجتماعيّ. وهو أيضاً جدلي، لأن هدفه إقناعي قائم، بلوغه على التزام صور استدلاليّة أوسع وأغنى، من البيانات البرهانيّة الضيّقة».[16]

النتائج والمناقشة :

1- العملية الاتصالية في قصة مريم :

لقد اصطفى الله عز وجل مريم عليها السلام لحمل معجزة ربانية (معجزة عيسى عليه السلام) وهي تختلف عن زكريا عليه السلام ويحيى عليه السلام اللذين عملا على تبليغ رسالة ربهما إلى قومها.

ومريم جاءها الإرسال المباشر من قبل جبريل عليه السلام الذي تمثل لها صورة البشر السوي وقد بدأ الإرسال بقوله تعالى: «فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً)

يتجلى الإرسال الأول في الجدول (1) :

الجدول(1) الإرسال الأول

المرسل	الرسالة	المرسل إليه
جبريل عليه السلام	« قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا»	مريم عليها السلام
مريم عليها السلام	« قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا»	جبريل عليه السلام

ويتجلى الإرسال الثاني في الجدول (2)

الجدول(2) الإرسال الثاني

المرسل	الرسالة	المرسل إليه
عيسى عليه السلام	« فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا»	مريم عليها السلام
	« وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا»	
	« فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا»	

أما الإرسال الثالث فيظهر في الجدول (3)

الجدول(3) الإرسال الثالث

المرسل	الرسالة	المرسل إليه
القوم	« يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا»	مريم عليها السلام
مريم عليها السلام	« فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا»	القوم

و يظهر الإرسال الرابع بمخاطبة عيسى عليه السلام بضمير الأنا في الجدول (4)

الجدول(4) الإرسال الرابع

المرسل	الرسالة	المرسل إليه
عيسى عليه السلام	« قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»	القوم

4-2 البنية المحادثاتية لقصة مريم :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ❁ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا».

يذكر المرسل الكلي الله سبحانه وتعالى بقصة أخرى وهي قصة مريم، فالشخصية الرئيسية في القصة هي مريم عليها السلام، وجاء في التفسير الكبير أن مريم عليها السلام طلبت الخلوة لئلاً تنشغل عن العبادة.

هناك علاقة اتصالية بين مريم وموضوع العبادة فلننتقل بعدها إلى العلاقة مع الله سبحانه وتعالى (المرسل الكلي)، فالعلاقة الاتصالية تظهر واضحة من خلال موضوع العبادة إذ ابتعدت عن أهلها لتفرغ لعبادة الله، فالعلاقة بين الله سبحانه وتعالى ومريم عليها السلام قد تحققت ومرحلة الإقناع وهي مرحلة مضمرة لم تظهر. كما أنَّ ملفوظ الانتباذ يحيل إلى البيئة التي كانت تعيش بها، أن قومها ابتعدوا عن العبادة، لتبقى على اتصال مع الله تعالى.

« فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ❁ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا».

وهنا يتبدى حدوث انفصال بين المرسل الله سبحانه وتعالى والمرسل إليه مريم عليها السلام، لتجد نفسها أمام تواصل آخر حيث بعث لها الله سبحانه وتعالى جبريل متمثلاً في صورة بشر سوي، هذا التمثيل يفضي إلى إحداث تواصل في شكل طبيعي، بلا ذعر ولا خوف، خاصة صورته التي جاءت وفق ما تقتضيه الطبيعة .

البشرية من قوة وفتوة وجمال» إلا أن (المرسل إليه) (مريم) عليها السلام ترفض التواصل مع جبريل عليه السلام المتمثل في هيئة بشرية فبادرته بالتعوذ منه.

واعتمدت عليها السلام على مؤشر ضميري متمثل في ضمير المتكلم الظاهر في سمته: إنّي وبالتالي فهي تحقق وجود عامل تواصل ثانٍ وهو المستقبل لقولها والذي تحقق من خلال ضمير الأنت منك.

بعد رفض مريم عليها السلام الاتصال مع جبريل تأتي الآية التالية إبعاد كل الأفكار التي راودت ذات الحالة مريم عليها السلام، وفعل إظهار الحقيقة يرتبط بفعل آخر وهو جزء من الفعل الإقناعي ويتجلى ذلك في قوله تعالى: « قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا»، أمّا ملفوظ (غلام زكي) فهو تحيل إلى حقيقة الغلام المرتقب والذي

هو هبة من الله سبحانه وتعالى. ثم يتلفظ جبريل (مرسل وسيط) بملفوظ (أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ) ليكشف عن هويته لمريم وبالتالي يكون قد خفف من الخوف، فهو رسول من ربّ العالمين سبحانه وتعالى، والثانية أن يهب مريم العذراء غلاماً زكياً. فالمرسل الوسيط يعمل على إقناع مريم عليها السلام بأن تصبح فاعلاً ينجز برنامجاً سياسياً بناءً على إقناع مريم بحقيقة الخطاب.

الإقناع بداية لم يحقق الغرض، ولم يؤول الفعل الإقناعي كما يجب، لأن مريم الطاهرة أعلنت تنزها عن الوصم بالعار، قالت « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا»

الآيات تحيل إلى جهة المنطق الإنساني، فمريم عليها السلام حللت الأمور وفق الأسباب والمسببات، فهي ترفض موضوع (حمل الغلام) لأن المبدئية الاجتماعية التي كانت فيها ترفض هذا الحمل.

ويوقف اعتراض مريم قوله تعالى: « قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا»، فالموضوع حاصل لا محالة فمجموعة الألفاظ تدّل على قدرة الفعل التي يمتلكها المرسل الكلي (الله سبحانه وتعالى) وهي « هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا».

وهذه الملفوظات تحقق . ولو إضماراً . إقناعاً لمريم بموضوع خلق عيسى عليه السلام.

وهنا يأتي التحول من الرفض إلى القبول، يتحكم في انتقال من مستوى إلى آخر فالله سبحانه وتعالى له القدرة على الفعل وهو الوحيد القادر على تحقيق الرغبة.

ولكن عدم تحقق الرغبة لدى مريم عليها السلام لا يفضي أبداً إلى أنها مكرهة أو ملزمة قسرياً لأداء الفعل (الحمل) فهي لا تريد أن يطعن عرضها.

فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً، وتظهر القدرة على الفعل (الحمل) كعنصر ظاهر من عناصر القدرة الإلهية على فعل تكوين الحمل (كن فيكون)، فبعد الوضع يتوجب على مريم العودة إلى قومها.

« فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»

إن تمني الموت يحقق فرضية وهي عدم رغبتها في الفعل (فعل مواجهة القوم) لأن ما تخوفت منه منذ البداية، وهي ملزمة بمواجهة قومها. والمؤكد أنهم لن يرحموها بفعلتها، والله سبحانه وتعالى المرسل الكلي لم يتخلَ عن مريم (عليها السلام) ومعجزتها عيسى.

« فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا» فقد انطق الله عيسى عليه السلام تطييباً لقلبها وإزالة لوحشتها حتى تشاهد في أول أمرها ما بشرها به جبريل من علو شأن ذلك الولد.

فالآيات تميل إلى اتصال بين (مريم) عليها السلام)، وعيسى الذي (ناداها) بمجرد ولادته، ليكون لها سنداً في الدنيا، وفي الإشارة لغة: (فأشار إليها بهزّ جذع النخلة لتأكل منه الرطب، ومريم) عليها السلام امتثلت للأوامر تحقق وجوب الفعل فكلي واشربي وقرّي عيناً فإمّا ترين من البشر أحداً قولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم أنسياً، ويمارس عيسى فعلاً إدراكياً هدفه إقناع والدته بمجموعة أفعال تكون مساندة لها للتخفيف من آلامها.

عيسى	مريم
المتكلّم	هز جذع النخلة
الدفاع عن والدته	الصوم عن الكلام
إثبات وحدانية الله	الإشارة إلى الصبي

ويتحقق البعد الإدراكي وتسير الأمور كلها إلى إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى.

فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا يا أختَ هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمّك بغياً» وكما توقعت مريم منذ البداية البرنامج الأساسي (خلق عيسى، ها هي تواجه تهجم القوم عليها، والذي بادرها بمساس عرضها، واتهمها بالزنى بشكل صريح (لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) وعنوا بهذا الكلام الكناية عن كونها أتت بأمر ليس من شأن أهلها، وهذا يؤكد المركز الديني الذي تحتله مريم وأهلها. وهذا يعد التزاماً من قبل مريم بفعل القول الذي أملاه عليها عيسى فقولي« إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا».

« فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا».

مريم عليها السلام ردت على قومها بالإشارة إلى ولدها، «يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا».

جاء استفهام القوم على شكل استفهام إنكاري لما فعلته من مريم عليها السلام، ملتزمة بالرد على قومها بوجوب الفعل (الصوم عن الكلام)، وهنا يأتي دور عيسى عليه السلام والذي يمتلك (وجوب الفعل، معرفة الفعل، القدرة على الفعل) والممنوحة من قبل الله سبحانه وتعالى فيكون تكلمه ثاني معجزة بعد خلقه دون أب.

«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا». وفي قوله فاجأها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسياً.

الأفعال التالية (فاجأها، قالت، كنتُ، متُّ) إعلامية ذات صيغة جاءت في الماضي تعلمنا حالة مريم عليها السلام.

وفي قوله: « فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا».

يربط بين (عيسى) عليه السلام ومريم عليها السلام اتصال بالطلب إليها بالصوم عن الكلام عند ملاقاتها لأي إنسان.

« فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۞ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا».

إن الفعل (أتت، تحمله) مرتبطة بضمير الغائب، ويتبين معالم مريم عليها السلام ومكانتها الاجتماعية، وأراد القوم ذمها فأتوا بكلام صريح يشير إلى أنها امرأة سوءٍ، وتحدد من خلال الملفوظات التالية (السوء،البغاء).

«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا».

فالملفوظات (عبد الله، أتاه الكتاب، جعله نبياً، مباركاً، باراً بوالدته) فهذا التعريف يجعل من شخص عيسى عامل واضح الصفات وركز على صفة العبودية والتي أصلها الخضوع والتذلل «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ۞ وما كان لله أن يتخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

في هاتين الآيتين تم تحديد صفات عيسى عليه السلام.

«وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم».

إن الآية الكريمة تحقق بملفوظاتها عبودية الله، فملفوظ فاعبدوه متفرعاً على قوله (أني عبد الله).

ملفوظات الآيات الكريمة السابقة تحيل إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى قد تكفّل بمعجزة عيسى وأيدّه بمجموعة من المعجزات التي تجعله قادراً على مجابهة تعنت بني إسرائيل، فقد زوده الله سبحانه وتعالى بمعجزات عدّة، ومن خلال الرد يقف سيدنا عيسى موقف مجابهة مع القوم الذين اتهموا والدته في عرضها، ومن خلال الرد فإن عيسى عليه السلام يجعل القوم في حالة انفصال عن (معجزة الله)، وموضوع الألوهية الذي يخصّ الله وحده أمام حالة تصديق لا مفر منها وأنه مكلّف بتبليغ كتاب الله الطاهر الإنجيل، وقيل التوراة، وقيل مجموعها»

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ».

تصوير واضح لاختلاف الأحزاب بين اليهود والنصارى كعاملين مختلفين ومضادين واختلافهم يعود إلى ألوهية عيسى عليه السلام إشارة واضحة لمرحلة الجزاء متمثلة في الملفوظ (فويل) الذي يؤشر إلى العقاب.

4-3-الحجاج في قصة مريم :

وتمتد قصتها في السورة المباركة من الآية السادسة عشرة إلى الآية الرابعة والثلاثين منها، وجاء في التفسير الكبير (إن مريم عليها السلام طلبت الخلوة لئلا تتشغل عن العبادة) أي أن مرحلة الإقناع بالفعل قد تحققت (الخلوة/العبادة) ولم يرد أي ذكر عن مرحلة الإقناع، وإنما جاءت بأسلوب ضمني لأن (الأقوال الضمنية كانت دائماً مرتبطة بالمعارف المشتركة للمتخاطبين، وتتوقف الظواهر الضمنية المضمرة على القدرات الاستنتاجية للمتخاطبين التي تستند بدورها على المعطيات اللغوية البحتة للملفوظات، وعلى معطيات مقامية، ترتبط بما سماها غرايس: أحكام المخاطبة أو قوانين الخطاب حسب ديكرو.

حرصت مريم عليها السلام على الانتباذ بعيداً عن قومها وهذا دليل على الوسط الذي كانت تعيش فيه مريم عليها السلام. ويورد في الآيتين التاليتين فعلان ماضيان (انتبذت . اتخذت) وكأنها تقرّ بفضل الله عليها، يواصل بعدها جبريل عليه السلام حججه، فلم يعتمد على ظاهرة الملفوظ بل توسل خطاباً تلميحياً والتلميح أسبق إلى الفهم « قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا».

(فالمرسل يفهم ما يضمره مثلما يظهر فيه، فإذا كانت تتجلى كفاءة المرسل التداولية في صناعة الخطاب فإنها تتجلى الكفاءة التداولية للمرسل إليه عند تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه فلو كان التخاطب يعتمد على الاستراتيجية المباشرة دون غيرها لكلّف الناس أنفسهم عناءً من أجل تفسير الخطاب وتوخّي الإطناب وإغفال ما تستدعيه عناصر السياق الاجتماعية من تنويع الخطاب في بنيته) ، وما دام الأمر متعلّقا بالتأثير في مريم عليها السلام، فإنّ المحاجج جبريل عليه السّلام سعى قدر الإمكان إلى أن يقدّم في خطابه كل ما يعرفه حول موضوع الحجاج، وما يوجهه من حجج وأدلة إلى مريم عليها السلام.

مقدمة: أنى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً.

حجّة: كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

نتيجة: فحملته فانتبذت به مكانا مقصيا.

في البداية كان هناك تعارضٌ حجاجي لأن الإقناع لم يحقق غرضه لأن مريم البتول رفضت أن يمسّ عرضها، فاكتسبت الشجاعة التي فاقت الحياء وأعلنت تنزهها عن الوصم بالبغاء.

« قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا»

وفي قوله تعالى: « هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ»، جاء هذا القول بعد استغراب مريم أيضاً وقد تكررت سابقاً في الآية التاسعة، أيضاً الحالة نفسها وسبب التقديم والتأخير يعزى إلى الأسباب التي سبق أن ذكرناها.

وبالعودة إلى استفهام مريم (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ) استفهام خرج إلى الإنكار، وفي ذلك بعداً حجاجياً يلمح به إلى عدم الملائمة بين حقيقة (مريم) وعفتها وصفائها، وبين حملها للغلام الزكي، ولم يمسسها بشرٌ ولم تك من أصحاب البغاء.

وإذا وقفنا عند الألفاظ التالية: (انتبذت)، (حجاجاً)، (أعوذ)، (أنّى يكون)، هيّن، قضيّا، (فأجأها)، (يا ليتني)،(مُتٌّ) ، (منسياً)، (لا تحزني)،(تساقط)،(فريا)،(بغيا).

الخوف ألجأ مريم إلى مكانٍ قصّي بقصد التخفي عن أعين الناس خوفاً من أعين الناس، وكل ذلك جعلها تستمع لنصائح وليدها الصغير، الأكل من النخلة والشرب من النهر، والتوجه إلى الأهل، وطلبها منهم مخاطبة الصغير كل ذلك من خلال كلمات لها إيحاؤها النفسي ودلالاتها التعبيرية عن الموقف الذي تعيشه مريم.

إلى أن انتقلت إلى مرحلة الإقناع وذلك لأنها مختارة دون نساء العالم للقيام بمثل هذا الفعل، ولم يفدنا القرآن الكريم بمدّة الحمل. « فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»

إن تمني الموت يظهر عدم رغبتها بمواجهة قومها لأن ما تخوفت منه في البداية أصبح ماثلاً أمامها، فالكلمتان (نسيا) و(منسيا)، كلتاهما تدلان على النسيان . لكن دلالة الثانية على النسيان كانت أعمق وأبعد، وزيادة في التأكيد على حدوث عملية النسيان، لدرجة أن الناس قد نسوها وليس تناسوها.

فألم الولادة والمخاض اضطرها لأن تلجأ إلى مكان بعيد تحت جذع النخلة، وهنا تصوير دقيق للمشاعر القاسية والأليمة.

وهنا لا بد أن نذكر أن مبدأ التعاون يظهر في حجج جبريل عليه السلام، والذي يقتضي من المحاجج شدّ انتباه المستمع إلى كل ما يطرحه سواء على مستوى المقدمات أو التبريرات أو الأدلة أو الحجج ليصل هذا المستمع إلى النتيجة المرجوة تصريحاً أو تلميحاً من خلال التعاون القائم بينهما أثناء الحوار بعيداً عن لغة العرض والإجبار والإلزامية التقبّل ضمن المحادثة المفيدة.

«فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربّك تحت سريا».

أنطق الله عيسى عليه السلام تطييباً لقلبها وإزالة لوحشتها حتى تشاهد في أول أمرها ما بشرّها به جبريل من علو شأن ذلك الولد.

ومناداة مريم ومطالبتها بعدم الحزن، وبغض النظر عن البحث عن المنادي هل هو الملك، أم (المسيح عليه السلام) ففي هذا الحديث تطمين لنفس مريم وتسلية لها بعدما استبّد بها الحزن لمّا رأت الأمر قد تحقق، وخالطها الخوف من اطّلاع قومها على ما حدث.

وفي قولها « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا»

فالإنسان بلا شك لا يلجأ إلى مثل هذا القول إلاّ إذا ألم به أمر يكون معه عاجزاً عن التعامل معه أو معالجته، ولذلك بعد كل هذا اليأس والإحباط الذي نزل بها جاء الأنس بقوله (لا تحزني)

«وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا».

معجزتان أرسلهما الله سبحانه وتعالى، جريان الماء من غير عين، وتساقط الرطب من جذع نخلة يابس.

يقول الزمخشري: (التمر للنفساء عادة في ذلك الوقت، وكذلك التحنيك...وقيل ما للنفساء خيرٌ من الرّطب،...وقيل إذا أعسر ولادها لم يكن لها خيرٌ من الرطب)

ثم تعتمد مريم على شاهد حجاجيّ جعلت المحادثة تنطق به أمام أعين القوم، فكان دليلاً مرئياً يُدعم به الحجة القولية وخاصة بعد الآيات الكريمة: « يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا».

قال ابن الجوزي:

(فأشارت إليه) أي أومأت إليه، أي إلى عيسى فتكلّم، وقيل المعنى أشارت إليه أن كلّموه.

وقد أدت إشارة مريم عليها السلام ما يؤديه الكلام، ولذلك فهم قومها منها، إنها تطلب منهم أن يكلّموا عيسى عليه السلام، لذلك قالوا لها: كيف نكّلم من كان في المهد صبيا فقد مثلت الإشارة هنا نوعاً من اتّصال عن طريق لغة الجسد، وهذا دليل على وجود اتصال دون كلام.

وطلب منها التزام الصمت لأن هو من سيخرج الحقيقة. وفي الصراع الدائر بين القوم ومريم لإثبات حقيقة المولود. يتعجبون مما قامت به مريم من فعلة عجيبة وغريبة، فتشير إلى طفلها، وفي الإشارة تعجب أكثر، عندها تحصل المفاجأة ويخبرهم الحقيقة.

«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۞ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۞».

والشاهد هنا طريقة تدور حول تقوية وتأكيد لموضع القول، وذلك بإعطائه حياة ملموسة ، إذ لا يتعلق الأمر بالتدليل بقدر ما يعمل الشاهد على تحريك المخيّلة، وإذا كان استعمالها الشاهد يقوم على تجسيد الفكرة باستحضارها في صورة شاخصة، فإن الغاية منه لا تكمن فقط في تعويض المجرد بالملموس وتبديل أو نقل الأطروحات من مجال إلى مجال آخر وإنما تكمن أساساً في تقوية الفكرة وتأكيد حضورها في الذهن.

لذلك اعتمدت مريم عليها السلام على وسائل لدعم حججها بحملها بعيسى عليه السلام، وذلك بأن تكلّم عيسى للدفاع عن والدته، وإثبات وحدانية الله وقدرته على خلق المعجزات.

يقف سيدنا عيسى عليه السلام موقف محاججة مع القوم الذين اتهموا والدته، وفي الآية مجموعة من الملفوظات تؤكد على أن الله تكفل بكلّ العناية وزوده بمجموعة من الصفات تجعله بحق معجزة خلق، فقد جعل الله حلوله في المكان سبباً لخير أهل تلك البقعة.

. ونلاحظ اختلاف أنواع الاتصال في هذه الآيات الكريمات، فهناك الاتصال عن طريق اللمس، وهزي إليك بجذع النخلة، وفيها الاتصال عن طريق الذوق فكلي واشربي، وفيها عن طريق البصر: فتمثل لها بشراً سوياً، واتصال عن طريق السمع: صورة القوم وهم يستمعون لذلك الطفل، وغير ذلك من الحوار.

أراد الله سبحانه وتعالى من تلك المشاهد أن يقر حقيقة عظيمة من حقائق التوحيد، وهي أن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وقد وردت كلمة ربّ في أكثر من موضع في السورة الكريمة، وكلمة ربّ في الأنماط كلها تعمل على تحقيق معنى الربوبية بين العبد وربّه.

الاستنتاجات والتوصيات :

1. يعد النّص القرآني أرفع وأسمى صور الاتصال. فهو رسالة سماوية بين الخالق عز وجل والمخلوق، الذي كرّمه الله بنعمة الخلق وهبة العقل. فهو لا يتوسل متلقياً في مكان وزمان معينين. وإنما موجه للبشرية جمعاء.

2. شكّل موضوع الاتصال في القرآن الكريم، ركيزة أساسية لتقديم طروحات تدعو الأذهان إلى التدبر الموضوعي في القضايا المطروحة، تدفع المخاطَب إلى التفكير والتأمل، من أجل الإقرار بحقيقة أساسية وهي الدعوة إلى عبادة الله عز وجلّ، ومن أجل تبليغ رسالة التوحيد وتغيير مواقف المتلقيين وتعديل سلوكياتهم.

3. تعددت الأساليب والآليات الاتصالية في سورة مريم، واختلفت الروابط والعوامل الحجاجية في السورة نظراً لما لها من دور فعال في انسجام الخطاب القرآني. فقد نطقت السورة بجميع أنواع الحجج والبراهين، متوافقة مع العقل البشري، بوضوح المقدمات والنتائج، معتمدة الحجة المستندة إلى معطيات أساسية، تأسس عليها الخطاب القرآني والتي جعلت منه خطابا حجاجيا بالدرجة الأولى. فجاءت قصص الأنبياء وسيلة للتمثيل بقصد الإقناع واستمالة العقول .

4. ركز النّص القرآنيّ على عناصر العملية الاتصاليّة فأطرها بـ (المرسل الكليّ)، الذي يقوم ببثّ رسالته إلى المرسل إليه (محمد ص)، والرسول (ص) يعمل على بثه إلى المتلقي الحاضر والمستقبلي. ولما كانت سورة مريم مليئة بقصص الأنبياء، فقد تعددت صور الإرسال فيها. وكان الغرض من كل رسالة التأثير في الأقوام وتغيير وجهتهم، ذلك للإيمان بالله، وترك كلّ ما اتخذوه آلهة من دون الله سبحانه وتعالى.

5. وظّف القرآن الكريم آليات متنوعة في التبليغ لا تتأسس على الفهم والإفهام فحسب وإنما تتعداه إلى التأثير واستمالة العقول.

6. تزامن تطور الدراسات اللسانية الحديثة مع تطور ظاهرة الاتصال البشري، فالاتصال ارتقى من أجل يكون أحد أهم العلوم اللسانية برمتها.

7. تنوعت طرق إيصال المعاني للسامع في سورة مريم، ولم تقف عند الاتصال اللفظي وإنما تضمنت مواقف فيها توظيف للغة الجسد (اتصال غير لفظي)، والتي تتمثل بحركات جسدية ذات دلالة مستقلة تأتي وحدهاً أو مترافقة مع اللغة المنطوقة.

8. تمظهرت الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة في سورة مريم، إضافة إلى كثير من مظاهر التضمين والإضمار ،كذلك توافر عناصر السياق المقامي والتي تساعد كثيراً على فهم المقاصد في النص القرآني..

9- تعددت أساليب الحجة والبرهان في القرآن الكريم واختلفت النماذج وآليات الحجاج الخاصة بالطبيعة الإلهية من سورة إلى أخرى لذلك نوصي بالغور في دراسة ظاهرة الاتصال في سور القرآن الكريم كافة وما يخص تجدد وتطور الدراسات الدائم لأن القرآن الكريم رسالة موجهة للبشرية جمعاء ويصلح لكل العصور .

المراجع والمصادر:

القرآن الكريم سورة مريم

1. مدخل إلى اللسانية التداولية، دلاش الجيلالي، ت. محمد بجياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، (54-60)
2. لسان العرب، ابن منظور، نسقه علي شيري، ج 15 مادة وَصَلَ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر، ط1، 1408 هـ، 1988م/ 316 . 318
3. الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، إبراهيم أبو عرقوب، مجدلاوي، للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1993، 17.
4. اللغة والتواصل، عبد الله مرتاص، الجزائر، دار هومة، ط3، 2000، 78-79.
5. الاتصال ووسائله بين النظرية والتطبيق، محمد سلامة محمد عنادي، السيد عبد الحميد عطية المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1991، 22.
6. الاتّصال، مفاهيم، أساليب، أنواع، فضيل دليو، فعاليات الملتقي الوطني، قسطنية، ط1، 2002، 9.
7. لسان العرب، ج4،ص12.
8. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، ج11، الكويت، 1987، 125.
9. الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دار الكتب، العلمية، بيروت، ط1، 1992، 179.
10. البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط4، 1997، 63 . 64. 65.
11. الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري)، حبيب أعراب، عالم الفكر، مجلة دورية، الكويت، ع1، 2001، 97،98.
12. . لسان العرب، مادة حجج، 570.
13. Di Dictionnaire de langue Francaise, Le rédaction, petit Robert, Paris, 1990.
14. Dictionary of comporary English, Longman, 1989